ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

التسامح
من التأصيل إلى تفعيل بناء جسور التواصل الحضاري
Tolerance
from rooting to activating building bridges of cultural communication

د.بنسالم الساهل
أستاذ جامعة محمد بن زايد للعلوم الانسانية ابوظبي

تاريخ الارسال:2022/12/28 **تاريخ النشر:** 2023/01/15

الملخص

أضحى التسامح في هذا العصر أكثر ضرورة وإلحاحا من أي وقت مضى، ذلك أن سرعة الاتصال والمواصلات وتداخل المصالح بين الدول والمجموعات والافراد جعل التعاون وتبادل المصالح أمرا لا مناص منه، ومن هنا كان لابد أن من إشاعة ثقافة التسامح والتعايش وتقبل الآخر المختلف، سواء لتحقيق المصالح المادية الفردية أو الجماعية، أو للحفاظ على سلامة الحياة والعيش المشترك على هذا الكوكب. ولهذا كان لزاما قبل الحديث عن التسامح من التأصيل الديني والشرعي له، إذ ذلك يجعل الفكرة أكثر تقبلا وتنزيلها على المجتمعات المختلطة وبين مختلف مكونات سكان المعمورة أكثر يسرا.

يمكن اعتبار التسامح جزءا من القيم والمبادئ الكلية التي دعت إليها الشريعة الإسلامية خاصة والاديان السماوية وغيرها عموما. إذ نصوص الأديان تزخر بتوجهات ومبادئ وتعاليم تبرهن على أن الأصل في الوجود الإنساني هو تحقيق التعايش والذي لا يتأتى إلا بترسيخ ثقافة التسامح وتقبل الآخر المختلف، سواء كان الاختلاف دينيا أو عرقيا أو ثقافيا حضاريا... ويمكن إجمال الأصول الشرعية التي يتأسس عليها التسامح في المنظور الإسلامي، في أصل التعارف " لتعارفوا"، والتعايش إذ طبيعة الإنسان واجتماعيته تحتم عليه المعايشة والمساكنة مع الغير لتدبير مصالحه، وأصل التعاون فلا يستقل مخلوق بتحقيق متطلبات عيشه، أو حاجة إلى من يعينه على ذلك. ثم أصل التدافع الذي هو تدبير الاختلاف حول المصالح والمنافع بالحوار والتفاهم وهو الأصل أو بالقوة لردع العدوان وهو الاستثناء. وتربع قيمة التسامح وسط مجموعة من القيم المحورية في الشريعة الإسلامية، بحيث لا يمكن تنزيلها بمعزل عن بقية القيم الأخرى، أو بالأحرى لا يمكن فهم التسامح إلا في علاقة الوشيجة التي تجمعه مع تلك القيم، وأهمها: قيمة الرحمة، وقيمة المغفرة، وقيمة الصفح، وقيمة العفو، وقيمة البر، وقيمة الإحسان... وهي قيم كلية وجامعة، يمكن اعتبارها محددات منهاجية للتصور الإسلامي. كما تقتضي قيمة التسامح تحقيق مبادئ مركزية لا تنفك عنها، ذلك أنه لا يمكن الحديث عن التسامح أو تنزيله في التعامل مع الآخر دون الأخذ بعين الاعتبار مبادئ أساسية ملازمة له، والتي يمكن حصرها أساسا في مبادئ: الحرية، والكرامة الإنسانية، والاختلاف الطبيعي أو السنني بين الناس.

من هنا يمكن أن نرى آثار التسامح في بعديه الإنساني والحضاري، وقد تجلت مظاهرها على مختلف زوايا الحياة الإنسانية، وكانت عنصرا فعالا في احترام الخصوصيات والهويات المتعددة واعتبار التعدد الثقافي والحضاري غنى للبشرية لا بد وأن تحافظ عليه، وأن تحتفل بحضوره لتزيين مظهر الحياة على هذه الأرض، التي شاء القدر أن نتشارك العيش في أرجاءها والاستفادة من خيراتها.

الكلمات المفتاحية: التسامح . التعايش . الحرية . الكرامة . الاختلاف . الدين . الإنسانية . الحضارة

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

Abstract

Tolerance has now become more necessary and urgent than ever before, because the speed of communication and transportation and the interweaving of interests between countries, groups and individuals have rendered cooperation and exchange of interests an inevitable matter. Therefore, it is necessary to disseminate the culture of tolerance, coexistence and acceptance of the different other, whether to achieve individual and collective material welfare, or to preserve the integrity of peaceful life and coexistence on the planet. That is why it is of primary importance, before addressing the concept of tolerance, to underpin it and show its conceptual roots in the religious and legal sources, in order to make the idea more acceptable and its application to multicultural societies and among the various components of the world's population more accessible.

Tolerance can be considered as one of the comprehensive values and principles called for by Islamic law, in particular, and divine and other religions, in general. Accordingly, religious texts abound with precepts, principles and teachings that stress the idea that the basis for human existence is the achievement of cohabitation, which can only be achieved by establishing a culture of tolerance and acceptance of the different other, whether this difference is religious, ethnic, or cultural... From an Islamic perspective, the legal principles on which tolerance is based can be summed up, first, in the concept of knowing each other ("so that you may know each other", as the Qur'anic verse goes), second, in coexistence, since the social nature of man necessitates cohabitation with others to manage interests, third, in the principle of cooperation, so that no creature is totally independent from others in fulfilling its life requirements, and, fourth, in the concept of interaction and the management of difference and discord over interests and benefits by dialogue and mutual understanding, which are the standard norms, or by force to deter aggression, as an exceptional measure.

The value of tolerance is at the center of a set of pivotal values in Islamic law, so that it cannot be applied in isolation from the other values. That is, tolerance can only be understood in the close relationship that brings it together with those values, the most important of which are: the value of mercy, the value of clemency, the value of forgiveness, the value of righteousness, and the value of benevolence... They are comprehensive and inclusive values, and they can be considered as the methodological determinants of the Islamic conception.

The value of tolerance presupposes the achievement of central principles that are closely related to it, because it is impossible to talk about tolerance or to apply it in dealing with the others without taking into account the basic principles inherent to it, which mainly consist in the principles of: freedom, human dignity, and natural or systematic differences between people.

Consequently, we can clearly see the effects of tolerance in its human and cultural dimensions, as its manifestations can be perceived in various aspects of human life. It is, indeed, an effective element that helps in respecting the multiple specificities and identities and in considering the pluralism of cultures and civilizations as a richness for humanity, and which must be preserved and celebrated as a prized adornment to our life on this earth, which fate has willed for us to share, live in its different parts, and cherish its bounties.

Keywords:

Tolerance, Coexistence, Freedom, Dignity, Difference, Religion, Humanity, Culture Civilization

مقدمة

لا شك أن التسامح أصبح في عصرنا الراهن أكثر ضرورة وإلحاحا، في مجتمعاتنا وبين شعوب الأرض قاطبة، أكثر من أي وقت مضى. ذلك أن تسارع وسائل الاتصال والمواصلات جعل الناس أفرادا وجماعات أكثر قدرة على التنقل إلى أماكن ومناطق مختلفة عن مواطنهم الأصلية، وهو ما يحتم التلاقي بين فئات تمثل خلفيات دينية وثقافية واجتماعية متنوعة أحيانا ومتباينة أحيانا أخرى. وقد فرض ذلك، على الكثير من الناس المختلفين طبائع وأعرافا وأديانا... أن يلتقوا على صعد واحدة، سواء كان محل سكنى أو عمل أو وسيلة نقل، أو محلا تجاريا، أو شارعا عاما، أو مكان ترفيه... وكل واحد من هؤلاء يصدر في كثير من تصرفاته عن ثقافة رسختها فيه عوامل البيئة الجغرافية والدينية والاجتماعية التي نما وترعرع فيها.

وغير خاف أن الكثير من العادات المختلفة بين الشعوب والأمم، قد تحدث في نفس المتلقي نوعا من الاستغراب، يتحول إلى نفور أو رفض أو محاولة تصحيح لما يعتقده ذلك المتلقي مخالفا للطبع والعادات الحميدة، أو تقاليد البلد الذي هو فيه.

إن هذا الاختلاف في تقدير القيم والأنماط الثقافية والاجتماعية، من مجتمع لآخر ومن ثقافة لأخرى، قد يتحول في كثير من الأحيان إلى مسوغ للنفور والعداء وربما الاقتتال، إذا لم يستحضر كل طرف أن ذلك الاختلاف هو نوع من التعبير عن سيرورة تاريخية وثقافية متأصلة في الشعوب والجماعات، وهي جزء من ذاتيتها وهويتها.

إن بناء قيمة التسامح اعتمادا على أصول شرعية أو فطرية جامعة، استنادا إلى مبادئ ومقتضيات أساسية من قبيل الحرية والكرامة الانسانية ومراعاة الاختلاف السنني والطبيعي بين الناس والمجتمعات، واعتمادُ ذلك في مناهج التربية والنظم القانونية والتشريعية، يمكن أن يحل الكثير من مشكلات هذا العصر، وخصوصا ما يتعلق بصراع الهويات والعقائد والحضارات.

أولا: أصول بناء التسامح الانساني والحضاري

يقوم بناء قيمة التسامح الانساني والحضاري على أصول ومرتكزات كبرى لابد من مراعاتها واستحضارها، إذ بدون ذلك يصبح الحديث عن التسامح ضربا من الوهم الذي لا يجدي نفعا في تجلية هذه القيمة الكبرى وتنزيلها، ويمكن حصر تلك الأصول في ثلاثة، هي:

. الأصل الأول: التعارف

من أصول تحقيق الاستخلاف الإلهي للإنسان على هذه الأرض، وفي هذا الكون، أصل التعارف؛ مصداقا لقوله تعالى:" **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً**

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" (الحجرات: 13)، فقد نبهت الآية الكريمة، على وحدة النوع الإنساني الذي يربط بين أفراد المجموعة البشرية برباط مقدس بانتسابها إلى أبيها آدم عليه السلام.

إن وحدة النوع الإنساني ووحدة أصله، لم يمنع من وجود تعدد واختلاف وتباين، وهو ما أشارت إليه الآية الكريمة في قوله تعالى: " وجعلناكم شعوبا وقبائل"، فلا يجادل أحد أن البشرية التي كان أصلها واحد (آدم عليه السلام) في المنشأ[1]، قد تكاثرت وتوزعت شعوبا وقبائل، على مختلف بقاع المعمورة. وقد زاد من حدة هذا الاختلاف العواملُ الطبيعية والجغرافية وغيرها؛ كما أسهمت عوامل التاريخ في بروز تنوعات أخرى بسبب تعدد الألسن والأديان والحضارات والأعراف شكلت هويات متعددة ومختلفة من جهة إلى أخرى.

ولذلك فإن من " جداليات الحياة الانسانية الأصلية، أن الركن الأول في هذا المثلث، وهو التعارف، يقوم على الاختلاف في الأعراق والألوان والألسنة، والاختلاف الجنسي بين الذكورة والأنوثة، وفي النظام الاجتماعي: شعوب وقبائل - ومع ذلك أو بسببه - فإننا نعرض اختلافنا على المستويات الثلاثة، ليقابلنا الآخرون (وليس ليواجهونا) باختلافهم، فيكون التعارف: أي الوعي العاقل بالاختلاف أساس للاعتراف الذي يقود للمصالحة أو العيش معا بدون مشكلات وجودية".[2]

لقد رسخ الإسلام مبدأ التعارف لحل مشكلة الاختلاف، وجعل ذلك قاعدة شرعية يحتكم إليها في العلاقة مع الآخر مهما بلغت درجة اختلافه عن الذات، " لقد بات المسلك الذي سلكه الإسلام مع المغاير الديني - عبر التعارف والاحتضان، والذي يمكن أن نطلق عليه (التعددية الدينية) في مقابل (التعددية الثقافية) المطلوبة اليوم - هو هدف محمود ومنشود في الزمن الحالي... والملاحظ في التجربة الإسلامية السالفة أن المفهوم لم يبق في حدود المستوى الأخلاقي؛ بل تطور إلى ضوابط تشريعية استندت إلى نصوص دينية تأسيسية، بما يضمن للشريك في الفضاء الاجتماعي الأمان والكرامة، ولا يبقى عرضة للتقلبات الحادثة؛ تلك التجربة

[1] . يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى)؛ جزء من خطبة النبي صلى الله يوم التشريق، رواه أحمد في مسند باقي الأنصار عنْ أَبِي نَضْرَةَ ، تحت رقم: 22391، ورقم: 22978.

[2] . عبد الرحمن السالمي، التعارف الاعتراف والمصالحة. مجلة التفاهم العدد 36، ص: 8.

التي رسخت عوائد مستجدة لدى المؤمن لترتقي به فكرا وروحا في التعامل مع الآخر، وسنت في المجتمع سننا باتت ضامنة لحقوقه مراعية لاختلافه..." [1]

.الأصل الثاني: التعايش

إن وجود الإنسان على هذه البسيطة، يتشارك مجالات جغرافية محددة، ويستغل ما سخره الله تعالى له من موارد للرزق، يقتضي منه التعايش، فالطبيعة الإنسانية تحتم على الانسان المؤانسة والعيش المشترك في نطاقات محدودة، وهو ما يجعل من البحث عن سبل التفاهم وتبادل المعارف والخبرات أمرا لازما بين أفراد وجماعات الجنس البشري؛ ذلك أن الفرد الواحد لا يستطيع أن يستقل بكل سبل العيش بعيدا عن الجماعة، كما يصدق هذا الحكم أيضا على مختلف الجماعات مهما تميزت بلغة أو لون أو دين أو انتماء جغرافي، وهذا ما تؤكده الآية الكريمة **"أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ"** [2]

أسس الإسلام لمبدأ العيش المشترك بوجود الاختلافات العرقية والدينية وغيرها، وهو ما ظهر جليا في وثيقة المدينة حين وضع الرسول صلى الله عليه وسلم مفهوما واسعا للمواطنة عبر عنه بمفهوم الأمة، يقول صلى الله عليه وسلم:" وإنّه من تبعنا من يهود فإنّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم، وإنّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وإنّ بني عوف أمّة مع المؤمنين، ليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلاّ من ظلم أو أثم فإنّه لا يُوتغ (يهلك) إلاّ نفسه، وأهل بيته. وإنّ ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف. وإنّ ليهود بني الحرث مثل ما ليهود بني عوف... وإنّ على اليهود نفقاتهم، وعلى المسلمين نفقاتهم، وإنّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأنّ بينهم النصح والنصيحة، والبرّ دون الإثم، وإنّه لم يأثم امرؤ بحليفة، وإنّ النصر للمظلوم، وإنّ يهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين". [3]

كانت الصحيفة تعبيرا مثاليا عن ترجمة عملية لنظرية الإسلام في التعايش في ظل الدولة الواحدة، المتعددة الأعراق والأديان، وقد شهد التاريخ الإسلامي تجارب رائعة في التعايش

[1] . عز الدين عناية: الإسلام والديانات الابراهيمية، مجلة التفاهم، العدد 36 ص، 50.

[2] - الزخرف: 32.

[3] -عددت الروايات عند المحدثين والمهتمين بسيرة الرسول فيما يتعلق بموضوع «الوثيقة» وطرق ورودها، فقد وصلتنا بروايات متعددة، منها: رواية ابن إسحاق، ورواية ابن أبي خيثمة، ورواية أبي عبيد القاسم بن سلام، ورواية حميد بن زنجويه، ورواية ابن أبي حاتم. وهناك طرق أخرى وردت منها «الوثيقة» ولكن ليست بنصها الكامل وإنما اقتصرت على ذكر جزء من النص، أو الإشارة إليه، منها: رواية الإمام أحمد، ورواية الإمام البيهقي.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

في شتى الحواضر الإسلامية الكبرى مشرقا ومغربا، كما في بغداد ودمشق والقاهرة والأندلس، حيث " قدم الإسلام تجربة تعايش ناجحة بين الأديان الثلاثة في الأندلس، أتاح فيها لدينين كتابيين الحضور والنشاط، كانت فيها عملية التوازن الديني والاجتماعي من إنتاج الإسلام وبرعايته، باعتباره الدين المهمين، غير أن التاريخ لم يسعفنا حتى الراهن بتجربة مماثلة في مستوى ألق التجربة، يرعاها دين إبراهيمي آخر ويحض عليها. إذ يتضمن الإسلام في روحه اعترافا بالآخر- أساسا منه الكتابي -وربما ذلك ما يميزه عن صنويه الآخرين، واللافت في التجربة الإسلامية الأندلسية أن المسيحي الذي تعايش معه الإسلام هو مسيحي غير عربي ولا تربطه صلات وثيقة بالتراث الشرقي".[1]

وقد وضع الاسلام قواعد شرعية وأحكاما فقهية لترسيخ مبدأ التعايش وضمان استمراريته وتطوره، والحفاظ على حقوق جميع الأطراف والفئات المتعايشة في حدود الأمة، فقد " أقر الإسلام مبدأ التساكن بين الأديان السماوية، وحرم الإكراه في الدين، وأجاز للمسلم أن يتزوج من كتابية، كما أجاز لأهل الكتاب أن يعيشوا في ظل المجتمعات الإسلامية آمنين مستقرين، يمارسون عباداتهم بكل حرية ويحظون بحماية تمكنهم من الاطمئنان على أموالهم ودمائهم..." [2]

وقد أباح الإسلام أيضا ذبائح أهل الكتاب، ومنع الاعتداء على حرياتهم الدينية وتغيير معتقداتهم أو التعرض لأعرافهم وتقاليدهم ما دامت لا تخالف النظام العام، لهذا أفتى الفقهاء بوجوب التعويض عن إتلاف ما يعتبر مالا عند الكتابي، كالخمر والخنزير وآلات اللهو، وغيرها [3]... مستندين في ذلك إلى عهود النبي صلى الله عليه وسلم، لأهل الديانات الأخرى، من ذلك عهد لنصارى نجران، والذي جاء فيه: " ولنجران جوار الله وذمة محمد النبي على أنفسهم، وملتهم، وأرضهم، وأموالهم، وغائبهم وشاهدهم، وعشيرتهم، ولا يغير حق من حقوقهم ولا ملتهم، ولا يغير أسقف من أسقفيته، ولا راهب من رهبانيته، وكل ما تحت أيديهم من كثير أو قليل..." [4]

---

[1] . عز الدين عناية الإسلام والديانات الابراهيمية. مجلة التفاهم، العدد: 36 ص/ 50.

[2] . مفهوم التسامح في إطار الرؤية الإسلامية، الدكتور محمد فاروق النبهان، جامعة الصحوة الاسلامية الدورة الثالثة، ص: 86.

[3] ـ أورد الدكتور شوقي أبو خليل، في هذا الموضوع نصوصا فقهية من كتاب بدائع الصنائع للكاساني وكتاب الخراج لأبي يوسف وكتاب الدر المختار، لعلاء الدين الحصفكي. التسامح المبدأ والتطبيق، شوقي أبو خليل، دار الفكر دمشق الطبعة الأولى، سنة: 1993 م، ص: 20.

[4] . زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: السابعة والعشرون، 1415هـ /1994م؛ ج :3، 635

وقد استشف الفقهاء، والمجتمع الإسلامي ككل، من سنة النبي أيضا قواعد التعامل الأمثل مع عموم القاطنين في ربوع دولة الإسلام، ومن ذلك ما نص عليه الإمام القرافي في كتابه الفروق، متحدثا عما يجب لأهل الذمة من حقوق، فذكر من ذلك: " الرفق بضعيفهم، وسد خلة فقيرهم، وإطعام جائعهم، وكساء عاريهم، ولين القول لهم، واحتمال إيذائهم في الجوار، لطفا منا بهم، لا خوفا ولا طمعا، والدعاء لهم بالهداية، وأن يجعلوا من أهل السعادة، ونصيحتهم في جميع أمورهم، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم، وجميع حقوقهم ومصالحهم، وأن يعانوا على دفع الظلم عنهم".[1]

إن هذه التوجيهات الأخلاقية، التي تستند إلى مقررات شرعية من سنة النبي صلى الله عليه وسلم، طبعت سلوك المسلمين تجاه غيرهم من أهل الملل الأخرى بقيم الرحمة والصفح والعفو والإحسان، وهي المركزات الأساسية التي تتجلى فيها قيمة التسامح كما عرفها الإسلام؛ وفي هذا الصدد يقول الدكتور محمد فاروق النبهان: " أما التسامح الذي يقره الإسلام فهو ذلك الذي يتمثل في احترام حق الآخر في ممارسة حقوقه الإنسانية من حرية عقيدة وحرية رأي وحرية تعبير، إقرارا لمبدأ التعايش بين الديانات وتأكيدا لمبدأ التساكن بين الشعوب والطوائف والقوميات ".[2]

. الأصل الثالث: التعاون

إن تدبير المصالح الدنيوية للإنسان لا يقوم به فرد ولا جماعة عرقية أو طائفة دينية، بل ولا دولة من الدول مهما علا شأنها وامتلكت من الخيرات والمعارف. وهذا من حكمة الله تعالى أن جعل المعارف والعلوم وتدبير المصالح والمنافع رزقا موزعا بين الناس، كي يحتاج بعضهم إلى بعض في ذلك، وهو ما نلحظه في مجتمعاتنا المعاصرة، حيث تضطر كل الدول إلى تبادل المنافع والمصالح، التي قد تسمى أموالا أو خبرات فنية وهندسية، أو موارد طبيعية، أو غير ذلك، وهو ما تشير إليه الآية الكريمة: " **وَاللّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الْرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّي رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاء أَفَبِنِعْمَةِ اللّهِ يَجْحَدُونَ**"[3]

التعاونُ على الخير من القيم المركزية في النظام الإسلامي، حيث جاء الأمر به في نصوص قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة، منها قوله تعالى:" لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

[1] . أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن القرافي (المتوفى: 684هـ)، أنوار البروق في أنواء الفروق، بيروت، عالم الكتب، بدون ط و ت. ج: 3، 15.

[2] . مفهوم التسامح في إطار الرؤية الإسلامية، محمد فاروق النبهان، جامعة الصحوة الإسلامية، ص:89.

[3] - النحل: 71.

الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُواْ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ "[1]، والملاحظ أن الأمر الإلهي بالتعاون جاء في سياق النهي عن رد العدوان والصد عن المسجد الحرام بالمثل، بل وحث في المقابل على التعاون على البر والتقوى، وهي درجة عالية من مراعاة مكارم الأخلاق والبحث عن السلم الإنساني، ودفع أسباب التوتر المفضي إلى النزاع والحرب.

إن القيم الأخلاقية القرآنية لا تقف عند حد المثال أو التنظير، بل لا تكون قيما إسلامية إلا إذا أثمرت نفعا وخيرا متعديا إلى الآخر، وظهرت آثارها في عمارة الأرض والإحسان إلى الخلق، " فلا أهمية لفعل خلقي إذا لم يكن ذا أثر تنموي على الفرد والجماعة على حد سواء، محصلا قدرا من التغيير المادي الظاهر على مستوى الذات، كما على مستوى المجتمع، ومؤديا إلى قدر من التعاون والتعارف الممتدين امتداد الزمن والإنسان والمنفتحين انفتاح الكون البشري مما يجعل هذا النموذج الأخلاقي مواكبا لإيقاع الحياة وطبيعة الانسان في حركتهما وتطورهما، أي من حيث هو نموذج متجاوز لمنفعة مادية أو لحظة زمنية معينة أو كائن إنساني متعدد إلى منافع أوسع".[2]

. الأصل الرابع: التدافع

إن المزاحمة على خيرات الأرض ومنافعها، التي سخرها الله للإنسان، سيؤدي حتما إلى أنواع من الخلاف على تلك المصالح، يتجسد في حب السيطرة من فئات معينة بدعاوى عنصرية تزعم تفوق هذا العنصر البشري على ذلك، باللون أو العرق، أو العقل. وقد عرف التاريخ البشري كثيرا من أنواع التسلط على الشعوب والأمم والأفراد والجماعات بدعاوى عنصرية أو دينية، ولعل مقولة المستعمر الأوروبي لسكان المناطق الإفريقية وآسيا، " نحن الجنس الأبيض أولى منكم بحكم هذه البلاد" [3] ومقولة هتلر التي بسببها اندلعت حرب أهلكت الحرث والنسل، في مختلف دول المعمورة، " لو قدر لي الاستيلاء على سبيريا... وأوكرانيا... وورسيا... لأصبح الشعب الجرماني يعيش في بحر من الوفرة "، أو كمن يدعو إلى إدخال الناس في دين أو مذهب يعتقد أنه بذلك يتقرب إلى الله ويخلص الناس من حبال الشيطان. وقد عانت البشرية من ويلات هذه النظريات وعنف تنزيلاتها على أرض الواقع، حتى خرج الكثير من

[1] - المائدة: 2

[2] - أطلس الحضارة الإسلامية، إسماعيل راجي الفاروقي، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1، سنة، 1998، ص: 242.

[3] . تنسب هذه القولة للرحالة الشهير ماجيلان، لما وصل جزر الهند الشرقية، قالها لأصحاب البلاد الأصليين.

المفكرين ينددون بأنه ليس من حق أحد أن يكره الناس على دخول الجنة، يقول **الفرنسي بيير بايل:**" عدوان هو أكيد على حقوق الرب أن يريد الإنسان حمل ضمير الغير على التصديق إكراها "[1] وفي السياق نفسه **كتب جون لوك:**" ليس لأي إنسان السلطة في أن يفرض على إنسان آخر ما يجب عليه أن يؤمن به أو أن يفعله من أجل نجاة روحه هو؛ وذلك لأن هذه المسألة شأن خاص ولا يعني أي إنسان آخر..." [2]، وهو ما أشارت إليه نصوص القرآن الكريم، منها قوله تعالى:" لا إكراه في الدين"

إن التأسيس لنظرية صراع الحضارات انطلاقا من خلفيات دينية أو سياسية أو اقتصادية تقوم على فكرة التمركز حول الذات والإعلاء من شأن قيم خاصة بجنس معين (الجنس الأبيض) أو حضارة خاصة، (الحضارة الغربية)، وهو ما سيؤدي حتما إلى حروب وصراعات وإهلاك للأنفس والخيرات، يستحيل معها تحقيق التعارف والتعايش والتعاون الذي من أجله وجد الإنسان في الأرض.

ولهذا فإن القرآن الكريم يؤسس لنظرية مخالفة لنظرية الصراع أو النزاع، المغلف بتفوق عرقي أو ديني، ويدعو في المقابل إلى ما يمكن تسميته " **بنظرية التدافع**" التي تتأسس على دفع كل أسباب العدوان والاعتداء على حريات وحقوق الآخرين مهما كانوا، ومن ثمة يوجه إلى نزع كل أسباب التوتر والأحقاد والعصبيات، حتى لا تكون وقودا لحروب يصيب لهيبها الأبرياء قبل غيرهم.

إن الغاية القرآنية من مدافعة الباطل والعدوان والظلم، هو تحقيق الاستقرار في الأرض وإصلاحها وإعمارها، مصداقا لقوله تعالى:" **وَلَوْلاَ دفاع اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ** ".[3]

فالدفع أو الدفاع كما ورد في القرآن، هو حصن من الحروب، وإن كان ولابد فإن الحرب تكون من أجل كبح جماح المعتدين والمغتصبين ورد عدوانهم، لقوله تعالى: " **وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**".[4]

[1] - ما معنى التنوير، محمد الشيخ؛ مجلة التفاهم، العدد: 37، ص: 131.
[2] - نفسه.
[3] - البقرة: 251.
[4] - الحج : 40.

إن التعاون في المنطق الإسلامي يقوم على أساس البر والتقوى ودفع الإثم والعدوان، لهذا هيأ الإسلام السبل لإمكانية إقامة حلف أو أحلاف من أجل رد العدوان عن الأبرياء وإرجاع الحقوق إلى أصحابها، وهو ما عبر عنه النبي صلى الله عليه بثنائه على حلف الفضول،[1] " إن الدين الإسلامي حريص كل الحرص على التعاون والتعايش، ولذلك فإنه يمد يده لكل من يؤازره في نشر الأمن والسكينة والطمأنينة، ويصون الدماء والحرمات فلا تؤذى ولا تنتهك بغير وجه حق لكل أتباع الأديان والملل والنحل حتى الوثنية منها، لتكون البلدان والدول والشعوب في استقرار واطمئنان والعالم كله في سلام وأمان، وهذه طريق واضحة لتحقيق السلم العالمي".[2]

إنه لا يوجد ضمن الرؤية القرآنية للعالم - القائمة على قاعدة الاستخلاف . صراع حضارات؛ " إنما هناك نمو وتدافع ضمن الحضارة الإنسانية المتواصلة والموحدة بين الدوافع الكونية المدنية التي تراهن على إنسانية الإنسان، وبين دوافع الهمجية والظلم بمركزيتها على الذات، انطلاقا من مبدأ التكافؤ الإنساني بين الذات والآخر المختلف فإن خطاب القرآن الكريم يدعو إلى بناء تكتك حضاري تعارفي " شعوبا وقبائل لتعارفوا" ليس لمواجهة ثقافات أو عقائد أخرى بل للتواشج مع ما يزخر به الآخر من طاقات السعي إلى الحق والمعرفة والإبداع ".[3]

ثانيا: مركزية قيمة التسامح بين القيم القرآنية

لقد رسخ الهدي الرباني قيمة التسامح من خلال تنزيلها على عدد من القيم المركزية الأخرى وتصريفها على أرض الواقع، فمن تلك القيم: **قيمة الرحمة، وقيمة المغفرة، وقيمة الصفح، وقيمة العفو، وقيمة البر، وقيمة الإحسان**... وهذه القيم تعتبر كل واحدة منها من القيم الأساسية والمركزية في التصور الإسلامي، وهي قيم كلية وجامعة، لا يمكن تبعيضها أو تصريفها في حالات دون أخرى.

كما يمكن اعتبارها محددات منهاجية للتصور الإسلامي، إذ لها إمكانية الاستيعاب، والتفسير، والإحكام لمختلف القضايا والإشكالات الفكرية والأحكام الفقهية. ومن هذا المنطلق فقد ورد في القرآن الكريم الحديث عن الرحمة في سياقات متعددة تشمل مختلف مظاهر

1 _ قال المباركفوري" وعلى أثر هذه الحرب ـ حرب الفجار ـ وقع حلف الفضول في ذي القعدة في شهر حرام، تداعت إليه قبائل من قريش... فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته، وشهد هذا الحلف رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وقال بعد أن أكرمه الله بالرسالة: لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت" الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري (المتوفى: 1427هـ)، دار العصماء، دمشق الطبعة: الأول سنة: 1427.

2 . تطبيقات التسامح الإسلامي واستدامته، ص: 11.

3 . مجلة التفاهم، العدد: 36، ص: 32.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

الحياة الإنسانية، والتشريعية؛ ففي سياق الحرب والهجرة ينبه سبحانه وتعالى على مبدأ الرحمة فيقول:" إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ "[1].

كما يدعو سبحانه وتعالى إلى عدم الإفساد في الأرض ويقرنه برحمة الله التي تشمل **المحسنين**، يقول تعالى:" **وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**"[2] وهو ما يعبر عن كون **الإحسان** من القيم الكبرى التي يجب أن تقوم عليها عمارة الأرض والاستخلاف فيها.

وفي معرض رد العدوان والاعتداء على الأنفس والأعراض والحقوق والمصالح، يقدم القرآن الكريم **مبدأ العفو والصفح والغفران**، على الانتقام ورد العدوان بالمثل، كما في قوله تعالى:" وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ".[3]

وقوله تعالى الجامع بين العفو والصفح وتجاوز حالة الانتقام،" وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ".[4]

ومما يتأسس عليه من القيم القرآنية المركزية مبدأ التسامح أو قيمة التسامح مبدأ البر والإحسان وفعل الخير، وتقديم المعروف وإعانة المحتاج... دونما تمييز بسبب اللون أو العرق أو الدين، مصداقا لقوله تعالى:" لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاء والضَّرَّاء وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ".[5]

وقوله تعالى:" لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ "[6]، فعمومات الآية تقتضي عدم التمييز في البر وأعمال الخير والإحسان بين المسلم وغيره، بل إن البر يشمل مختلف شرائح المجتمع البشري، وهو ما تؤكده الأحاديث النبوية الشريفة

[1] -البقرة: 218

[2] - الأعراف، 56.

[3] - الشورى: 40.

[4] - البقرة: 109.

[5] - البقرة: 177.

[6] - آل عمران: 92.

كقوله صلى الله عليه وسلم:" **في كل كبد رطبة أجر**"[1]، فالإحسان إلى البهائم والحيوانات مرقاة إلى الجنة، وأفضل منه الإحسان إلى الإنسان... وهو ما يؤكده كذلك قول النبي صلى الله عليه:" **الخلق كلهم عيال الله وأحب خلقه إليه أنفعهم لعياله**". وإذا علم العبد **أن الخلق كلهم عيال الله**، وعلم أن **أحب الخلق إلى الله سبحانه أنفعهم لعياله**، وجب مراقبة الله تعالى في خلقه بأداء ما يجب عليه من حقه، وبذل ما أوجب الله لهم من فرضه؛ وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " **إن الله فرض للفقراء في أموال الأغنياء قدر ما يسعهم، فإن منعوهم حتى يجوعوا أو يعروا أو يجهدوا، حاسبهم الله حسابا شديدا وعذبهم عذابا نكرا**".[2]

ثالثا: مقتضيات التسامح في تحقيق التعايش الانساني

تقتضي قيمة التسامح تحقيق مبادئ مركزية لا تنفك عنها، ذلك أنه لا يمكن الحديث عن التسامح أو تنزيله على أرض الواقع في التعامل مع الآخر المختلف دون الأخذ بعين بالاعتبار مبادئ أساسية ملازمة له، والتي يمكن حصرها أساسا في مبادئ: الحرية، والكرامة الإنسانية، والاختلاف الطبيعي أو السنني بين سائر الناس.

. المبدأ الأول: الحرية

خلق الله تعالى الإنسان حرا، وغرسَ في أصل فطرته جذور الحرية وبذورها، فالحرية ليست قيمة مكتسبة تعطيها جهة أو تتفضل بها على بقية الخلق، بل هي جزء من خلق الإنسان وتكوينه؛ يقول **الشيخ الطاهر بن عاشور**:" إن الحرية خاطر غريزي في النفوس البشرية، فيها (الحرية) نماء للقوى الإنسانية من تفكير وقول وعمل، وبها تنطلق المواهب العقلية متسابقة في ميادين الابتكار والتدقيق، فلا يحق أن تسام بقيد إلا قيدا يدفع به عن صاحبها ضر ثابت أو يجلب به نفع".[3]

وقد جاءت الأديان السماوية من أجل تحرير الإنسان من شتى أنواع العبوديات والاضطهاد، وهو ما دعت إليه كذلك النظريات الفلسفية والأديان الوضعية، يقول **الدكتور محمد زكي عبد القادر**:" وهذا الكتاب الذي أقدم له جمع أقوالا في الحرية والكرامة الإنسانية، اختيرت من مختلف اللغات في الشرق والغرب... التي يتحدث بها البشر، ومن مختلف العصور. فيها أقوال قيلت قبل الميلاد بألف سنة، وفيها أقوال قيلت منذ سنوات، وعلى طول ما يفصل

[1] . أخرجه البخاري في (كتب المساقاة، وكتاب المظالم وكتاب الأدب)، ومسلم في (كتاب السلام).

[2] - تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة: 1، 1422هـ - 2002 م. والحديث على ضعفه له شواهد تقويه.

[3] . أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور، ص: 162.

بينها من الزمن لا تكاد تجد المعاني تغيرت، ولا حب الحرية والافتتان بها قل أو تحول. وفي هذا دليل على أن الحرية والكرامة الإنسانية ليستا شيئين ينموان بنمو الإنسان، ولكنهما شيئان ولدا معه وأحسَّ بهما وكافح من أجلهما وأراق دمه في سبيلهما؛ قد يتطور مدلولهما ويتقدم ويتسع، قد يتخذان أشكالا متعددة، ولكنهما من حيث الجوهر باقيان خالدان".[1]

ومن هذا المنطلق لا يمكن الحديث عن التسامح بمعزل عن الحرية، إذ بينهما علاقة تواشج متين، ولهذا كان من الضروري احترام حريات الآخرين مهما تعددت تجلياتها، ما دامت لا تتعارض مع المصالح الكلية للجماعة الإنسانية، ومقتضيات التعايش، حيث" يترتب على القول بمبدأ الحرية القول بمبدأ التسامح؛ ذلك أن من أهم أشكال الحرية الإنسانية حرية الاعتقاد...إذ من غير المعقول أن يفرض الإيمان بالإكراه، وهو الذي من شأنه أن يتأتى بالإقناع ".[2]

. المبدأ الثاني: الكرامة الإنسانية

مبدأ التكريم من المبادئ الأساسية والمركزية في التصور الإسلامي، إذ الإنسان خلق مكرما بأصل المنشأ، ولا ينتقِص شيءٌ من كرامته سواء كان فعلا اقترفه أو اعتقادا اعتقده أو لونا اصطبغ به... وذلك لأنه كريم في أصله وفي نفسه، فالتكريم - الذي دل عليه الوحي الإلهي - هو " جعل الشيء المكرم كريما في ذاته ليس منعما عليه إنعاما عاما بصفة من الصفات أو بمجموع من الصفات، ولكنه جعله في حد ذاته كريما أي نفيسا. والله عز وجل حين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ خاطب "الإنسانية " بتعبير اليوم، و" بني آدم" بتعبير القرآن، فأفاد أمرين: أفاد تكريما لهؤلاء الذين تناسلوا من آدم عليه السلام إلى قيام الساعة، ذكورا كانوا أم إناثا، وأفاد أن من تكريمهم أيضا أنهم قد تناسلوا من آدم، وآدم قد كرم قبل في الانطلاق..." [3]

في مستوى آخر تبرز قيمة الكرامة الإنسانية التي يتساوى فيها الجميع في قوله تعالى:"ولقد كرمنا بني آدم"[4] ، "من هذا الإطلاق في التكريم تنفتح أبواب تحول مزدوج؛ وهو تحول مع الذات وتحول في فهم الآخر، ومعه يصبح الدين عامل وفاق وبناء حضاري عوض أن يكون أداة صراع وتناف".[5]

---

[1] . الحرية والكرامة الإنسانية ؛ محمد زكي عبد القادر؛ القاهرة، الجمعية المصرية لنشر المعرفة، الطبعة 1، 6 . 7.

[2] . ما معنى التنوير، محمد الشيخ؛ مجلة التفاهم، العدد: 37، ص: 131.

[3] . مظاهر التكريم الإلهي لبني الإنسان، الدكتور الشاهد البوشيخي، مجلة حراء، العدد 15.

[4] - الاسراء: 70

[5] . منزلة التعارف والاعتراف في منظومة القيم القرآنية. مجلة التفاهم، العدد: 36؛ ص: 29.

إن أي انتقاص من كرامة الانسان أو انتهاك لها، هو تعد - في التصور الإسلامي - على حدود الله تعالى الذي خلق فسوى وكرم هذا الإنسان، وجعله خليفة في أرضه وجزء من ملكه، وسخر له من مخلوقاته ما تعتدل به حياته على هذه الأرض وفي هذا الكون، والحديث هنا عن الإنسان بغض النظر عن جنسه أو لونه أو عقيدته... إن استحضار التكريم الإلهي للإنسان، يكون مدعاة لترسيخ قيمة التسامح بين الناس؛ ذلك أن الناظر إلى الإنسان المختلف والمغاير في العقيدة أو الطبيعة أو الطبائع والأخلاق وهو يستحضر هذا التكريم الإلهي له، يجعله أكثر تسامحا تجاه ما يقابله من اختلافه ومغايرته. ذلك أن التكريم أصل ومبدأ في حين يعتبر الاختلاف والمغايرة فرعا وأمرا طائرا... والعقل الإنساني السليم مهيأ ليقدم الأصل عن الفرع والمبدأ عن المتغير.

. المبدأ الثالث: سننية الاختلاف، وأهميته

كل الأدلة الكونية تنبه إلى أن الاختلاف سنة خِلقية وكونية، فلا تكاد تجد شيئين يتطابقان وإن تشابها، وما في الكون من مناظر ومخلوقات مهما اتحدت أنواعها وأجناسها وأصنافها إلا وبينها اختلافات ظاهرة وخفية. وقد أشار القرآن الكريم في غير ما آية إلى أن الاختلاف سنة كونية وآية من آيات الله وأدلة على وحدانية وقدرته وحكمته، من تلك الآيات قوله تعالى:" **إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ**"[1]، فالليل مختلف كليا عن النهار بشكله وحركته وسكونه ومخلوقاته وروائحه ووظائفه...

وأنواع الزروع والثمار مختلف كذلك، ولو اتحد الجنس والصنف، أنظر إلى بيانه تعالى لهذه الحقيقة: " **وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ**...".[2]

واختلاف الألوان الألسن كذلك، كما في قوله تعالى:" وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ **وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ** إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ"[3]. وهذا الاختلاف الذي أشار إليه سبحانه وتعالى لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى اختلاف في الطبائع والعادات والأذواق، وهو ما تؤكده الكثير من الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية، وفي ذلك يقول عالم الاجتماع

[1] - يونس: 6.
[2] - الأنعام : 141.
[3] - الروم : 22

دو لاكروا:" إن الجماعة نفسها واقعة طبيعية وهي جزء من الطبيعة فيها كل مظاهرها وكل تغيراتها ".[1]

وقد أشار الشيخ **الطاهر بن عاشور** في معرض حديثه عن مفهوم الطيبات بعدما ذكر طرفا من اختلاف الفقهاء في تحديدها ومعايير ذلك، **يقول:" وفيه من التحكم من تحكيم عوائد بعض الأمم دون بعض ما لا يناسب التشريع العام**، وقد استقذر أهل الحجاز لحم الضب بشهادة النبي لقوله في حديث خالد بن الوليد:" ليس هو من أرض قومي فأجدني أعافه" ومع ذلك لم يحرمه على خالد... ونحن نجد أصنافا من البشر يتناول بعضهم بعض المأكولات من حيوان ونبات، ويترك بعضهم ذلك..." [2].

إن مراعاة هذا الاختلاف الطبعي والثقافي في التعامل مع الآخر هو تنبيه للعقل، الذي " لا ينتبه إلا في دائرة الاختلاف "[3] ليصير عنوانا للتسامح، يقبل المختلف المغاير، ويعتبر التصرفات والأذواق نوعا من الغنى والثراء، ويعطي للحياة الإنسانية جمالية ورونقا خاصا، كما تتعدد الأشكال والألوان في الطبيعة من جبال وهضاب وسهول ونباتات وأشجار وغيرها؛ يقول **حكيم الهند أوشو**" فقط حين لا نهتم بالشكليات، ولا بالعادات، وبالأصول واللياقات، فقط حين ذلك ينبعث التسامح ".[4]

إن محاولة إيجاد مجتمع يشبه أفراده بعضهم بعضا إلى درجة التطابق هو نوع من الخيال والوهم والبحث عن المستحيل، وهو سبب أكثر المشاكل الاجتماعية والحروب الدينية، إذ من سنن الطبيعة الاختلاف والتنوع في أكثر الأشياء التي تشكل بنية المجتمع وثقافته ومظاهره، ولهذا جاء في القرآن الكريم، "وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ"[5]، فلم يجعل الله الناس أمة واحدة، ولكن خلقهم مختلفين وحثهم على التعارف لا التناكر، فلو طغى الصراع لعم الجهل بخصائص الشعوب وطبائع الأشياء، إذ الوحدة لا تتم إلا بالتضامن في دائرة الاختلاف. " فالمختلف يشكل المؤتلف شرط الاعتراف (بالآخر) مقابل (الأنا) حيث يتم التفاعل بينهما مشكلا التعدد، من حيث هو سابق في الجبلة الإنسانية بالاستناد إلى اختلاف المرجعيات والقراءات والتأويلات، وبالتالي القناعات والتوجهات..."[6]

---

[1] . نشأة الدين النظريات التطورية والمؤلهة، الدكتور علي سامي النشار، دار السلام، الطبعة 1، 2009، ص: 166.

[2] . التحرير والتنوير، 6/ 103.

[3] . الدكتور المهدي بن عبود، صراع العقائد ومستقبل الإنسان، منشورات داتا بريس، طبعة 1989، ص: 11.

[4] . التسامح، أوشو: 37.

[5] - هود: 118

[6] . الخطاب الصوفي بين الهوية والاختلاف الأنا والآخر، أحمد بوزيان.، مجلة التفاهم، العدد: 39، ص: 248.

رابعا: آثار التسامح في بعديْه الإنساني والحضاري

1 . الآثار الانسانية والاجتماعية

إن المجتمع البشري مدعو اليوم أكثر من أي وقت مضى إلى البحث عن سبل مثلى لتدبير الاختلاف والمصالح التي تمزقه بسبب غياب رؤية جامعة في إطار الوحدة الإنسانية المتساكنة على وجه البسيطة. ولا تستطيع البشرية أن تجد حلولا لمشكلاتها إلا بالتوافق على نوع من القيم الجامعة، يكون لها من القدرة على التأطير والتفسير والحكم بين المختلفين ما يؤهلها لتقوم بدور البوصلة الموجهة لحركة الإنسان في هذه الأرض.

ونعتبر أن قيمة التسامح . مع روافدها . يمكنها أن تودي هذا الدور المحوري في تنظيم العلاقات الاجتماعية والإنسانية في العصر الراهن، من حيث اعتبار القيم معايير أكثر منها سلوكات؛ ذلك أن " التحدي الذي يواجه القيم، لا يواجهها باعتبارها سلوكات وتمثلات... وإنما التحدي الذي يواجه القيم يواجهها باعتبارها معايير للسلوك والاختيارات الجماعية، يواجه خاصيتها المعيارية، خاصة وأنها منظومة معيارية للسلوكات والاختيارات والتوجهات".[1]

إن القوانين والتشريعات والنظم لا تستطيع لوحدها ترشيد حركة الإنسان، وبناء عناصر الثقة بين أفراد المجتمع البشري، بل لا بد أن يصاحب ذلك وازع من ضمير داخلي، يؤطره توجيه ديني أو اعتقاد ساميٌّ يكون بمثابة الحارس على حركة الإنسان حين تغيب أعين القانون، فالإنسان يمتثل لقناعاته الدينية والتربوية أكثر مما يخضع للقانون، " فثمة بعد آخر في هذا الإنسان باعتباره كائنا أخلاقيا وأنه محكوم بمنظومة من القيم التي توجه سلوكه، وحتى اختياراته العقلية في كثير من الأحيان تجد تفسيرها من اختياراته الأخلاقية وليس العكس..." [2]

لقد كان البحث عن المشترك الإنساني الذي يمكن أن يخفف من دوائر الصراع والنزاع في العالم ديدن المفكرين والفلاسفة والمصلحين، الذين يرجون للبشرية غدا أفضل تنعم فيه بالطمأنينة والسلام، وتحقق التعايش والتعارف، ومن ثمة فقد أجمعوا على أن القيم الأخلاقية أكبر المشتركات الانسانية التي يمكنها أداء هذا الدور في توحيد الإنسانية؛ ذلك أن العقائد تختلف من فئة لأخرى وكذلك التشريعات تختلف من حيث مرجعياتها الدينية أو الوضعية، في حين تبقى الأخلاق والقيم مبادئ مشتركة، سواء كانت خلفياتها دينية أو وضعية، ما دامت

[1] . واقع تدافع القيم على المستوى الاجتماعي بين الرؤية المجتمعية والرؤية الكونية ، كتاب تدافع وبناء القيم، السياق الدولي والواقع الإسلامي، المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، د. سمير بودينار، ص: 95.

[2] . المرجع نفسه.

سلوكات نفعية تظهر آثارها في الواقع، فهي بمثابة لغة مشتركة يمكن أن تؤدي إلى تفاهم بين الناس مهما تعددت لغاتهم وأجناسهم.

غير أن هذا الإجماع لا ينفي البعد الديني والعقدي عن الأخلاق والقيم، لتكون وضعية محضة، بل يحتكم فيها لظواهرها وآثارها على الإنسان دون خلفياتها، مع التأكيد على أن القيم والأخلاق ذات الصبغة الدينية والخلفية العقدية أكثر فعالية ورسوخا وامتدادا في سلوك الإنسان وواقعه.

ومن هذا المنطلق عالج التفكير الإسلامي مشكلة الأخلاق باعتبارها قوام السير الحسن إلى الله، وأن آثارها تتعدى الفرد إلى المجتمع، فجمعت النظرية الأخلاقية الإسلامية بين البعد العقدي والنفسي والاجتماعي، ولم تفصل بين هذه الأبعاد إلا على سبيل التقريب لتلك المفاهيم الأخلاقية؛ فقد اعتبر علماء الإسلام أن الأخلاق الحسنة نوع من الصحة النفسية (أو القلبية) والاجتماعية، وأن الاهتمام بهذا النوع من الصحة أولى من الاهتمام بصحة الأبدان التي يبقى أثرها محدودا في الزمان والمكان؛ يقول الشيخ جمال الدين القاسمي: "وَالْأَخْلَاقُ السَّيِّئَةُ هِيَ السُّمُومُ الْقَاتِلَةُ، وَالْمَخَازِي الْفَاضِحَةُ، وَالرَّذَائِلُ الْوَاضِحَةُ، وَالْخَبَائِثُ الْمُبْعِدَةُ عَنْ جِوَارِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، الْمُنْخَرِطَةُ بِصَاحِبِهَا فِي سِلْكِ الشَّيَاطِينِ، وَهِيَ الْأَبْوَابُ الْمَفْتُوحَةُ إِلَى نَارِ اللَّهِ الْمُوقَدَةِ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ، كَمَا أَنَّ الْأَخْلَاقَ الْجَمِيلَةَ هِيَ الْأَبْوَابُ الْمَفْتُوحَةُ مِنَ الْقَلْبِ إِلَى نَعِيمِ الْجِنَانِ، وَجِوَارِ الرَّحْمَنِ. وَالْأَخْلَاقُ الْخَبِيثَةُ أَمْرَاضُ الْقُلُوبِ وَأَسْقَامُ النُّفُوسِ، إِلَّا أَنَّهُ مَرَضٌ يُفَوِّتُ حَيَاةَ الْأَبَدِ، وَأَيْنَ مِنْهُ الْمَرَضُ الَّذِي لَا يُفَوِّتُ إِلَّا حَيَاةَ الْجَسَدِ"[1].

لا أحد يجادل أن المجتمعات المعاصرة تعاني في عمومها من الكثير من الأمراض القلبية والنفسية والتي تترجم في التعصب والكراهية والحسد والأحقاد والانتقام وسوء الظن بالآخر والقلق من المستقبل والخوف من شح الموارد الطبيعية، والأنانية والشره في الاستهلاك وعدم تقدير حاجات الآخرين عند الفئات المتحكمة، فكان لزاما البحث عن سبل لمعالجة تلك الأمراض النفسية والمساوئ الاخلاقية،" ولا يستطيع إنسان سوي أن يعيش جامد الفكر إلا إذا تبلد مزاجه وساء ظنه ببيئته، بذلك فالتسامح صفة تدل على سلامة الفكر ونقاء الوجدان، أما التصلب والتعصب فيكادان أن يكونا أمراضا نفسية تحول بين الإنسان وفطرته، وبينه وبين

[1] ـــ موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، المؤلف: محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، (المتوفى: 1332هـ)، المحقق: مأمون بن محيي الدين الجنان، الناشر: دار الكتب العلمية، سنة النشر: 1415 هـ - 1995 م، ص/175

مجتمعه، فيتفرد وينفرد منكمشا، شاكا في كل ما حواليه، يستضعف كل رأي غير رأيه، ويرفض التعايش والتآزر، شاكا في كل كفاءة غير مقدرته، فيفقد الثقة بغيره..." [1]

وقد كان للعوامل السياسية والاقتصادية، ووسائل الإعلام والاتصال الدور البارز في تأجيج حالات الاحتقان وزيادة منسوب الكراهية والبغض للآخر المختلف[2]، ولا يمكن اليوم القضاء على الكثير من تلك الآفات النفسية، والتي تنقلب إلى مشكلات وآفات اجتماعية وإنسانية عامة، إلا بترسيخ مبادئ وقيم أخلاقية سامية تشرك البشرية في الإيمان بها والعمل وفقها. وترسيخُ تلك المبادئ والقيم يكون من خلال وسائل الإعلام والاتصال الأكثر تأثيرا وانتشارا بين الناس، وكذا المناهج التعليمية والدراسية، حيث تتشرب الناشئة في المعاهد التعليمية تلك القيم الإيجابية البانية من خلال مختلف وسائل ومناهج التربية والتعليم،" فالصراعات العرقية والثقافية والدينية قد برزت بقوة؛ لأن المناهج التعليمية لم تبن على قيم أخلاقية تصب في التسامح وتركز عليه وتضرب له الأمثال من النماذج الهادية عبر التاريخ والواقع، وتبصر الدارسين بآثار التسامح على الاستقرار والازدهار لكل المجتمعات".[3]

إن حاجة المجتمعات البشرية اليوم إلى التسامح هو كحاجة المريض إلى الدواء المناسب لمرضه، ذلك أن مفعول التسامح يعود بالأثر على الأفراد والجماعات، وقد قال حكيم الهند أوشو: " التسامح يحررك ويمنحك الحرية "، وهو بمثابة رائحة العطر تفوح كلما أزهرت نفس الإنسان بالقيم النبيلة، " ولكن إن لم تزهر ذات الإنسان، فمن المستحيل أن ينتشر العطر، عطر التسامح والعطاء، ولن يختبر أحد رائحته..." [4]

وحين تسري روح التسامح وتنتقل بين أفراد المجتمع " يصبح المجتمع الإسلامي مجتمع التسامح، سواء في المعاملات أو تلقي الآراء والأفكار، أو في التساكن مع مختلف الجماعات، أو الحوار مع باقي الديانات والأيديولوجيات".[5]

وعلى نقيض التسامح فإن التعصب والغلو والتطرف والاستعلاء آفات اجتماعية تدفع أصحابها، أفرادا أو جماعات، إلى العلو في الأرض والإفساد فيها وانتهاك حرمات الآخرين وكرامتهم بدعاوى عنصرية، وقد جابه الإسلام تلك الآفات بالقضاء على أسبابها والخلفيات

[1] . التسامح في الإسلام فلسفة . تاريخ . آفاق، ذ. أحمد السايح، جامعة الصحوة الإسلامية، ص: 311.

[2] . انظر على سبيل المثال ما ألف في بيان مخاطر وسائل الإعلام، منها، المتلاعبون بالعقول، هربرت شللر، سلسلة عالم المعرفة. وكتاب: التلفزيون وآليات التلاعب بالعقول، بيير بورديو. وكتاب: السيطرة على الإعلام، نعام شومشكي وغيرها.

[3] . انظر في هذا المجال كتاب الدكتور فاروق حمادة، تحصين الشباب من الأفكار الهدامة، ص: 27.

[4] . التسامح، أوشو: 19.

[5] . التسامح في الإسلام فلسفة . تاريخ . آفاق، ذ. أحمد السايح، جامعة الصحوة الإسلامية، ص: 311.

المولدة لها، " فدين الاسلام يدعو إلى التوازن ويدين الإفراط والغلو؛ فكم هم بعيدون عن الحقيقة الإسلامية أولئك الذين يبالغون ويتشددون ويتعصبون. ومن الخطأ أن نحمل الإسلام تجاوزات بعض العقول الضالة، أولئك الذين يظهرون أسوأ تجاوزات التعصب والعنف، ليسوا من ورثة الإسلام في شيء." [1]

لقد شكل التعصب عبر التاريخ أحد الآفات الاجتماعية التي تسببت في الكثير من الحروب والدمار بدعاوى عنصرية مقيتة، منها تفوق هذا الجنس أو هذه الطائفة على غيرها، وكان سببا في الكثير من الانتهاكات لحقوق الإنسان وحرياته " فالتعصب يجعل الأشياء التافهة تبدو هامة جدا... ويولد الكراهية بين الناس، ويضيق بالفكر ويؤيد الأفكار المسبقة " [2] فلو نظرنا إلى أسباب قيام الحربين العالمتين لوجدنا من أهمها ادعاء، التفوق العنصري، يقول هتلر: " العنصرية بتنكرها لمساواة الأعراق تنكر أيضا تساوي قيم الأفراد، أي أنها تنكر حق البقاء لكل عنصر ضعيف وضيع يحاول الاختلاط بالعناصر المتفوقة وإضعافها..."،[3] وهو بهذا يشرعن لعملية السطو على خيرات الشعوب الأخرى وممتلكاتها التي يراها غير جديرة بالاستفادة مما في حوزتها، يقول:" ولهذا لن ينقذ ألمانيا من خطر الجوع إلا الاستيلاء على أراضي جديدة... فعندما نكافح من أجل كياننا، لا يبقى هناك مجال للاعتبارات الإنسانية ".[4]

إن التسامح الثقافي مما يجب مراعاته في المسامحة الاجتماعية لتحقيق التعايش والتقدم؛ ذلك أن كثيرا من الأشكال الثقافية تصدر عن منظومات فكرية واجتماعية، وتعتبر جزءا من هوية الجماعة وخصوصياتها، " فداعي الهداية الذي يميز الخطاب القرآني في خصوص هذا الموضوع يقر الاختلاف، لأنه أولا اعتراف بواقع ثقافي لا يخلو منه مجتمع، ولا يمكن تصور إلغائه، ولأن الآخر. ثانيا . مجال ضروري للوعي بالذات بصورة بنائية فاعلة. بتكامل هذين المقتضيين يؤسس الخطاب القرآني قراءة انفتاحية للمغاير المختلف وللواقع المركب والمتجدد، بما يحول الهوية الدينية إلى مجال جذب، بما تكسبه تلك الهوية من معنى الحياة، ومن تناسق وتطوير للواقع".[5]

---

[1] . شارل سان برو، حركة الإصلاح في التراث الإسلامي، ترجمة وتقديم أسامة نبيل، القاهرة، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى سنة: 2013. ص: 36.

[2] . التسامح، دوني ديدرو، ص: 21.

[3] . كفاحي، أدولف هتلر، دار الكتب الشعبية، بيروت؛ الطبعة الثانية سنة، 1979، ص: 61.

[4] . المرجع نفسه، ص 17 و 28.

[5] . مجلة التفاهم، العدد: 36، ص: 25.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

لهذا يقتضي الاجتماع البشري القبول بالتعابير الثقافية للجماعات المختلفة، في العادات والتقاليد والأعراف، **وقد قبل النبي صلى عليه وسلم، ألوانا من الألبسة جاءته هدايا من أمم مختلفة**، لم تكن جزءا من ثقافة المجتمع العربي ولا من عاداته، كما **سمح للحبشة لما** قدموا إليه باللعب والرقص برماحهم **في مسجده**، وعائشة رضي الله عنها متكئة على كتفه تتفرج على ذلك، [1] **كما نهى صلى الله عليه وسلم أبا بكر الصديق عن منع الجاريتين** اللتين كانتا تضربان بالدف عند عائشة رضي الله عنها.[2] وفي مناسبة العرس والفرح رخص صلى الله عليه وسلم وأمر على سبيل الاستحباب أن يضرب بالدف وتغني الجارية [3]؛ كل هذا وغيره يعبر عن مراعات الشاكلة الثقافية للأمم والشعوب والجماعات، وعدم استبعاد ما يعتبر جزء من هويتها، إلا إذا كان ذلك يتنافى بشكل صريح مع نصوص الشرع ومقاصده.[4]

وبالجملة، فإن " التسامح هو الفضيلة والقيمة الأخلاقية التي تبعد من نشأ عليها وآمن بها عن العنف والحقد والكراهية للناس، وتجعل المتسامح يتعامل مع الآخرين بالاحترام والتعايش والفهم. إن الإنسان لا يولد وهو يحمل الحقد والكراهية (كل مولود يولد على الفطرة) ولكنه يتعلم القيم السلبية، وبإمكاننا أن نعلمه ونربيه على القيم الإيجابية، ونجعله ينظر إلى الثقافات والأعراف والأديان نظرة إيجابية تمثل عظمة الخالق في التنوع الإنساني والثراء البشري والإبداع المتلاحق عبر التاريخ في سلسلة الحضارات، وهذه النظرة ترسخ الخير للناس وتشق الطريق إلى التعاون الكوني البناء"[5] ، وقد ضرب المسلمون الأولون أروع الأمثلة في التعايش والتسامح وتدبير الاختلاف وقبول الآخر؛ " قال خلف بن المثنى: (لقد شهدنا عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يعرف مثلهم في تضاد أديانهم ونحلهم... وقد كانوا يجتمعون،

[1] . عن عائشة رضي الله عنها قالت: " وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب. فإمّا سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإمّا قال: " تشتهين تنظرين؟ فقلت: نعم. فأقامني وراءه، وخدي على خده، وهو يقول: " دونكم يا بني أرفدة " حتى إذا مللت قال: " حسبك؟ قلت: نعم. قال: " فاذهبي " أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العيدين، باب الحراب والدرق يوم العيد، رقم الحديث: 907.

[2] . من حديثُ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ أبا بكرٍ رَضِيَ الله عنه دخل عليها وعِندَها جاريتانِ في أيَّامِ مِنًى تُدَفِّفانِ وتَضرِبانِ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم متغَشٍّ بثوبِه، فانتَهَرهما أبو بكرٍ، فكشَف النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عن وَجهِه، فقال: دَعْهما يا أبا بكرٍ؛ فإنَّها أيامُ عيدٍ، وتلك الأيَّامُ أيَّامُ مِنًى" .(رواه البخاريّ).

[3] ــ الحديث عن عائشة " أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم يا عائشة ما كان معكم لهو فإن الأنصار يعجبهم اللهو" البخاري، كتاب النكاح، باب النسوة اللاتي يهدين المرأة إلى زوجها ودعائهن بالبركة.

[4] . لقد اصطبغ الرأي الفقهي في هذا المجال بالكثير من التشدد والعنت المخالف للنصوص أولا ولقيم الشريعة ثانيا وللفطرة الإنسانية ثالثا.

[5] . تحصين الشباب من الأفكار الهدامة، فاروق حمادة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الطبعة 1، 2016 ص: 26.

فيتناقلون الأخبار، ويتناشدون الأشعار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في دياناتهم ومذاهبهم)"، هذا مثال من الحضارة الإسلامية التي طوحت تحت جناحيها الأديان والمذاهب واللغات والثقافات والأعراق والألوان، وأطلت على جهات العالم كلها فحفظت كل ذلك، واستمرت بتعاون كل هذه المختلفات جميعها حتى عصرنا الحاضر حين بدأت جهات تستغل هذه العظمة القائمة على التسامح إلى طائفية وعرقية لتضرب هذه العظمة في صميمها".[1]

2 . الآثار العمرانية والحضارية للتسامح

لا شك أن للتسامح تأثيرا واضحا على حركة تبادل المصالح والمنافع والتجارب الإنسانية، وهو ما يدفع نحو النمو الاقتصادي والعمراني، حيث تحتاج التجارة إلى كثير من المسامحة والليونة، في الأخذ والعطاء، وقد أشار النبي الكريم إلى هذا المعنى حين قال: " **رحم الله رجلًا سمحًا إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى**"، قال ابن بطال في شرح الحديث:" فيه الحضُ على السماحة وحسن المعاملة، واستعمال معالي الأخلاق ومكارمها، وترك المشاحة والرقة في البيع، وذلك سبب إلى وجود البركة فيه لأن النبي عليه السلام لا يحض أمته إلا على ما فيه النفع لهم في الدنيا والآخرة ".[2]

وهذا الحديث وإن كان المفسرون له قد ضيقوا معانيه، إلا أنه من جوامع كلمه صلى الله وعليه وسلم، وقواعد التوجيه والتشريع؛ ذلك أن المسامحة في التجارة تؤدي إلى تحقيق عوائد مجزية على جميع الأطراف، ولهذا فإن أكثر الدول والشركات نجاحا في أنواع التجارات هي التي بَسَّطت الإجراءات الإدارية والقانونية، وسهلت عملية دخول وخروج البضائع وتنقل التجار والمهنيين، وأقامت أسواقا حرة لهذا الغرض. كما أن السماحة في التجارة تقتضي التجاوز عن كثير من الشكليات التي ليست من صميم العملية الاقتصادية، والتساهل كذلك في الأرباح حتى تستفيد مختلف الجهات سواء المنتج أو المستورد أو البائع بالجملة أو بالتقسيط أو المستهلك، وهو ما يؤدي إلى سرعة دوران عجلة التنمية الاقتصادية والعمرانية.

إن الاحتكام إلى الشرع قرآنا وسنة، يعتبر عاصما للأمة من الزلل وفقدان البوصلة، غير أن الكثير من أفكارنا التي رسختها ثقافة التقليد وعصور الانحطاط تحتاج منا إلى مراجعة حقيقية وجريئة على ضوء مقررات الشرع وقواعده ومقاصده، وكذلك على ضوء التطورات

[1] . تطبيقات التسامح الإسلامي واستدامته، الدكتور فاروق حمادة، حروف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 2018. ص: 8.

[2] . شرح صحيح البخاري لابن بطال؛ المؤلف: ابن بطال أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك (المتوفى: 449هـ)، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، دار النشر: مكتبة الرشد - السعودية، الرياض. الطبعة: الثانية، 1423هـ - 2003م. ج 6/ ص 210.

التي عرفتها مختلف العلوم والمعارف والمناهج التي يمكن الاستفادة منها في ذلك. ومما تجب مراجعته أحكام التحريم والمنع التي طالت الكثير من الممارسات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛ فقد أدى التضييق في اعتبار المباحات والتشديد في التحريم والمنع بسبب اختلاف العادات والأعراف إلى تفويت فرص كبيرة على المسلمين، ولا أقول عن الإسلام، في الرقي والتقدم وتحقيق المكاسب الدنيوية والاقتصادية على الخصوص، والاقتراب من شعوب وأمم بسبب اختلاف عاداتها وتقاليدها عن أعراف المسلمين وتقاليدهم؛ وقد **قال ابن القيم** تعقيبا على الفقهاء بسبب تشددهم في الشروط، وغيرها بأنهم:" أفسدوا بذلك الكثير من معاملات الناس وعقودهم وشروطهم بلا برهان من الله، ومعلوم أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله، ولا تأثيم إلا ما أثم الله ولا رسوله به فاعله".[1] ومن ثمة فإن" التسامح الذي هو من مميزات الإسلام يدل بدون أدنى شك على الطاقة الانفتاحية التي تتوفر عليها حنيفيتنا السمحة، بدءا من نسيان الفوارق الدينية إلى تجاوز الممارسات الخاطئة التي واجهت المسلمين صادرة من غيرهم، وما زالت تواجههم بقوة وعنف. وإن أي تسامح ينبغي أن يرتبط اليوم بالانفتاح الذي غذا سمة العصر، بعد أن اختصرت المسافات وتقاربت الحضارات وتكامل الاقتصاد ومدت الجسور الثقافية بين مختلف الشعوب".[2]

فالتسامح يدفع نحو الرقي الثقافي وقبول كافة أشكال التعبير عن عادات الشعوب والمجتمعات سواء كان ذلك متجليا في الفنون كالموسيقى والغناء والأهازيج، أو أشكال اللباس وأنواع الأطعمة وغيرها التي تدخل في الاستعمال اليومي، أو كان في أنواع العمران والهندسة والتخطيط، والتزيين الذي تتباهى به البيوت أو المنشآت العمرانية كالقصور أو دور العبادة، أو المباني الإدارية، أو الساحات والحدائق العمومية وغيرها؛ بحيث تكون ثقافة التسامح وقيمه، جسرا للتواصل الحضاري بين الأمم والشعوب، ودافعا نحو التثاقف وتبادل الأفكار في مختلف المجالات العمرانية والحضارية والعلمية.

ومما ينبغي التأكيد عليه أن الحاجة إلى قيم التسامح لتدبير الصراعات تزداد، كلما ازداد تزاحم الإنسانية على مصادر الغذاء وموارد الطاقة والماء... التي تقل باستمرار. وهو ما يستدعي تأطير التشريعات الدولية والمحلية بقيم التسامح والسلام، كي ينعم الجميع على وجه البسيطة بحقوق متساوية في خيرات الأرض، تساويهم في أصل الجنس البشري وكرامته. ذلك أن

[1] . إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم بيروت، دار الكتب العلمية ط1، سنة:1991م.1، 344.

[2] .تسامح الإسلام مع الذات والآخر، الأستاذ عباس الجراري، جامعة الصحوة الاسلامية، ص: 111

البحث عن سبل مشتركة للعيش وتحقيق الاستقرار، يجعل من الضروري ترشيد العولمة وتوجيهها لما يخدم الصالح العام الإنساني ككل، " ففي الوقت الذي تتزايد فيه صور التفكيك الثقافي والصراعات الثقافية عبر العالم، فإن ظرف العولمة لا تترك هذا العالم وشأنه؛ بل يواصل طرح الأفكار والأجندات، ويتركها تتدفق عبر الأدوات الجديدة لنقل المعلومات، وهنا يظهر تناقض مهم من تناقضات العولمة، ألا وهو التناقض بين الخطاب الذي يدعو إلى التوافق والسلام والحوار، والخطاب الآخر الذي يذكي الصراعات ويقويها" [1].

إن حالات الصراع الذي يشهدها العالم يدفع بالمجتمع الإنساني إلى البحث عن السلام وتقويته من خلال ترشيد العولمة وتوجيهها لما يخدم الصالح الإنساني، وتفعيل الآليات الدولية سواء على مستوى السياسات أو التشريعات، وأهم من ذلك ترسيخ ثقافة السلم والتسامح والتعايش بين مختلف المكونات التي تقتسم الكرة الأرضية، " ولا شك أن ثمة علاقة قوية بين السلام والتسامح كقيميتين أخلاقيتين، فلا سلام بلا تسامح، ولا تسامح بلا سلام... فثمة معان ودلالات تشير إلى قبول الآخر، واحترام وجهة نظره، والعفو عنه، ومن ثم التعايش المتسامح السلمي معه... إن التسامح والسلام في ضوء هذه المعاني الدلالية والتداخل الواضح بينهما يمكن أن يشكلا فضاء من الفضائل يناقض حالة العولمة بتناقضاتها المختلفة، ويدفع إلى تحسين مسارها." [2]

لقد شعر المنتظم الدولي بأهم ترسيخ قيم السلام والتسامح والمساواة، لهذا جعل من أولوياته تفعيل تلك القيم بين المجتمعات الإنسانية " فقد أصدرت منظمة اليونسكو في مؤتمرها العام سنة 1995 إعلان المبادئ العامة المتعلقة بالتسامح وخطة عمل متابعة لسنة الأمم المتحدة للتسامح... كما دعت الجمعية العامة للأمم المتحدة سنة 1996 الدول إلى الاحتفال باليوم العالمي للتسامح في 16 نونبر من كل عام، من خلال القيام بأنشطة تربوية وثقافية، تدعو إلى الحوار والتفاعل الإيجابي ونبذ العنف والتطرف، وتأكيد الحاجة إلى التسامح والسلام بين البشر..."[3]

خاتمة

[1] . العولمة وقيم السلام والتسامح، الفرص والتحديات ، أحمد زايد، مجلة التفاهم، العدد: 37، ص: 146.

[2] . المرجع السابق، ص: 151.

[3] المرجع السابق، ص: 156.

ISNN : 1112-8518 EISSN : 6200-2600

إن أهم الآثار التي يمكن أن تثمرها ثقافة التسامح بمختلف تجلياتها وقيمها، هي تقليل آثار الصراعات والنزاعات والكراهية، والتعصب، والعدوان على حقوق الآخرين وحرياتهم وخصوصياتهم. وبهذا يعيش الإنسان على وجه الأرض في نوع من التواد والتآخي والتآزر والتعاون في حل مشكلات الكوكب والقضاء عليها، سواء كانت مشكلات بيئية كالتلوث والانحباس الحراري، أو مشكلات اقتصادية كالأزمات التي تضرب العالم بين الفينة والأخرى بسبب غياب ثقافة التسامح، أو مشكلات اجتماعية كالفقر والبطالة. أو مشكلات إنسانية كالتعصب والكراهية والتطرف والاعتداء على حرمات الناس وحرياتهم، أو مشكلات مرتبطة بالحروب والنزاعات والتي يمكن أن تفض عن طريق الحوار والمشاركة في تبادل المصالح والمنافع بدل محاولات السيطرة والاستيلاء على مقدرات الشعوب، فيبقى التسامح اللغة والقيمة الأخلاقية المشتركة التي يمكن أن تدلل الكثير من عقبات التواصل والتلاقي الحضاري والتعايش الإنساني.

لائحة المصادر والمراجع

1. أحمد بوزيان، الخطاب الصوفي بين الهوية والاختلاف الأنا والآخر، مجلة التفاهم، تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الدينية سلطنة عمان. العدد: 39.
2. أحمد زايد، العولمة وقيم السلام والتسامح، الفرص والتحديات، مجلة التفاهم، العدد: 37.
3. إسماعيل راجي الفاروقي أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة عبد الواحد لؤلؤة، واشنطن، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1، 1998.
4. أوشو، التسامح رؤية جديدة تزهر العالم، ترجمة علي حداد ، الكويت، دار الخيال ط 1،2011.
5. حسن السايح، التسامح في الإسلام فلسفة . تاريخ . آفاق، الدار البيضاء، جامعة الصحوة الاسلامية الدورة الثالثة، 17 . 19 يناير 1994.
6. حميدة النيفر، منزلة التعارف والاعتراف في منظومة القيم القرآنية، مجلة التفاهم، العدد: 36.
7. دوني ديدرو، التسامح، تر: حسام أبو سعدة، القاهرة، مكتبة النافذة، ط 1، 2014.
8. سمير بودينار، تدافع وبناء القيم، السياق الدولي والواقع الإسلامي، الرباط، منشورات المركز المغربي للدراسات والأبحاث المعاصرة، الطبعة 1، 2013.
9. شارل سان برو، حركة الإصلاح في التراث الإسلامي، ترجمة وتقديم أسامة نبيل، القاهرة، المركز القومي للترجمة ط1، 2013.
10. عباس الجراري، تسامح الإسلام مع الذات والآخر، الدار البيضاء، جامعة الصحوة الاسلامية الدورة الثالثة، 17 . 19 يناير 1994.
11. القرافي أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن (المتوفى: 684هـ)، أنوار البروق في أنواء الفروق، بيروت، عالم الكتب، بدون ط وبدون ت.
12. عبد الرحمن السالمي، التعارف الاعتراف والمصالحة، مجلة التفاهم، العدد 36.
13. عز الدين عناية، الإسلام والديانات الابراهيمية، مجلة التفاهم، العدد: 36.
14. فاروق حمادة، تحصين الشباب من الأفكار الهدامة، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط 1، 2016.
15. فاروق حمادة، تطبيقات التسامح الإسلامي واستدامته، أبوظبي، حروف للنشر والتوزيع، ط1، 2018.
16. فضل الله محمد إسماعيل، روح القوانين في التشريع السياسي دراسة مقارنة، مجلة التفاهم العدد: 39.
17. الحرية والكرامة الإنسانية؛ محمد زكي عبد القادر؛ الناشر: الجمعية المصرية لنشر المعرفة، الطبعة 1.
18. محمد الشيخ، ما معنى التنوير؟ مجلة التفاهم، العدد: 37.
19. محمد الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس، الشركة التونسية للتوزيع.
20. محمد الطاهر بن محمد بن محمد عاشور التونسي، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، تونس، الدار التونسية للنشر، 1984م.
21. محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم بيروت، ، دار الكتب العلمية ط1، سنة:1991م.
22. محمد بن أبي بكر شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، زاد المعاد في هدي خير العباد، مؤسسة الرسالة، بيروت - مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، الطبعة: 27، 1415هـ /1994م.
23. محمد بن فتوح بن عبد الله الميورقي الحَمِيدي (المتوفى: 488هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، 1966م.
24. محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، (ت: 1332هـ)، موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، تحقيق: مأمون الجنان، بيروت، دار الكتب العلمية، 1415هـ.
25. محمد فاروق النبهان، مفهوم التسامح في إطار الرؤية الإسلامية جامعة الصحوة الإسلامية الدورة الثالثة سنة 1998م.